الموضوع السابع

فضل تلاوة القرآن الكريم

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب، هم على كُثَيِّبٍ من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأم به قومًا، وهم به راضون - وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله - وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين مواليه».

[أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٢٥٢) رقم (١١١٦) وقال: لم يروه عن بشير بن عاصم إلا عمرو بن أبى قيس فى الثقات]

هذا حديث عظيم عن فضل تلاوة القرآن الكريم وفضل أهله.

«يهولهم» أى: يخوفهم الهول، أى لا يفزعهم يوم القيامة عندما يفزع الناس، ولا يخافون عندما يخاف الناس ويرتجفون.

« ولا ينالهم الحساب »، أى لا يصيبهم العقاب ولا العذاب.

«ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ولا ينالهم الحساب، هم على كُثَيِّب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق».

هُم أى هؤلاء الثلاثة على كُثَيِّبٍ من مسك، والكثَيب: هو القطعة الكبيرة الزكية من المسك قطعة كبيرة مترا فى متر، أو مترا فى متر ونصف، أو مترين فى مترين، أى: قطعة جميلة واضحة كلها مسك، كلها نور، كلها عطاء من الله ﷻ،

وهم على كثيب من مسك حتى يَفْرُغَ، أى: حتى ينتهى الملك من حساب الخلق، «حتى يفرغ من حساب الخلائق» (الفاء مسكنة) .

«ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر» وكلمة الفزع الأكبر موجودة فى القرآن الكريم فى سورة الأنبياء، وهناك فزع أصغر، وهناك فزع أكبر .

الأول رجل: كلمة رجل تشمل على التغليب: (الرجل، والمرأة) .

«ورجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله تعالى» أى لم يشترط الحصول على مُرتب، ولم يشترط نقودًا مقابل الدعوة إلى الله تعالى مقابل أن يبلغ رسالة الله ﷻ إذا فعل هذا فقد قبض وأخذ أجره فى الدنيا، وهذا معناه أن الأجر فى الدنيا مهما كان كبيراً فإنه لا يساوى شيئًا .

«رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأمَّ به قوماً»، أى: صلى بالناس صلاة الجماعة «وهم به راضون»، أى: قال لك: هذا رجل محترم، وعنده خشوع، ويخاف ربنا، وليس متكبرًا، وإذا صليت خلفه استشعرت أنه يخشى الله، لكن أحدهم عندما تُقام الصلاة، وإذا به يدخل فى الإمامة، ويوجه نفسه، ويرى نفسه هو الأفضل والأقوى والأزكى والأحسن "لا يحبك رسول الله ﷺ"، يحبك رسول الله ﷺ عندما يقدمك الناس: تفضل يا أستاذنا، أنت أجودنا، أنت أعلمنا، أنت أخشانا، سنستأذن لك الإمام الراكز وتصلى بنا؛ لأن الناس يريدون أن يسمعوا صوتك؛ لأنه جميل جدًا، فهذا الرجل لا يُفْرَضُ عليهم، وإنما الناس هم الذين رغبوه وأجمعوا على أن يصلى بهم، هذا الذى أراده النبى ﷺ «رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، و أَمَّ به قوماً، وهم به راضون » .

أى أن الناس كلهم موافقون عليه، لم يختلف أحد على أخلاقه، وسيرته بينهم لا تشوبها شائبة، لم يقل أحد عنه أنه يغتاب أحدًا، لم يكن يلعب بأوراق اللعب (الكوتشينة) أو أنه يلعب كذا أو أنه يضيع صلاة الجماعة، ولكن كل الناس شهدوا له بالاستقامة، فهذا رجل يصلى بالناس، والناس مستريحة له

جدًا، وبعد الصلاة يستشعرون أنهم أدوا صلاة جميلة خاشعة، وليست صلاة سوقية .

وأحدهم يُصلى بآية واحدة ويركع، لا يأتى على آيتين من خواتيم سورة البقرة ويقرأ فى كل ركعة آية، ويُصلى بالناس بها وهذا لايصح، من قال هذا؟ وأحدهم يقرأ آية واحدة ويركع لا يجوز ، أقل الآيات التى يصلى بها الإنسان ثلاثة حتى لو كانت سورة قصيرة (سورة الإخلاص، النصر، المسد، قريش، الفلق، الناس ....).

«رجل أَمَّ الناس وهم به راضون» يستريحون إلى صلاته يقول لك: أنا أستريح لصلاة فلان؛ لأنه يُصلى صلاة جميلة، رجل يطيل فى صلاته لا يسرع، صلاته فيها راحة إذا ركع يبقى الركوع فيه خشوع؛ ليجعل الناس يثنون على الله، يسبحونه، وإذا ما رفع من الركوع فإنه يقف يعطى الناس فرصة لحمد الله ﷻ إلى أن يقف الناس جميعاً ثم ينزل، وعندما يسجد فإنه يمتع نفسه بالسجود حتى تستقر جبهته على الأرض، لكن أحدهم يُصلى صلاة سريعة رياضية كأنه يركب صاروخًا، كأنه ينتظر مكالمة فى المحمول، كأنه يتعجل الذهاب إلى موعد.

الصلاة صلة، وليس لك أن تستشعر هذه الصلة إلا عندما يكون قلبك موصولاً بالله، وليس هناك وصل إلا إذا كانت هناك سكينة، فى الصلاة، والخشوع فى الصلاة هو الذى يجعل الإنسان يتذوق حلاوة الصلاة، ولكى أتذوق حلاوة الصلاة، ولا أؤخرها عن موعدها أبداً، عندما أسمع الأذان أنتفض، وأنهض فهذه ساعة ينادى فيها الجبار، ينادى فيها القهار ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦].

وهل هناك فى الحياة أفضل من الصلاة؟ ما الذى عندك فى حياتك؟ ما الذى يشغلك أهم من الصلاة؟ والذى يشغلك سينتهى اليوم، وينتهى غدًا، وينتهى ليلاً، وينتهى نهارًا، أما الصلاة فإنها على وقتها، وإذا ضاع وقتها

ضاعت بركتها، وعندما تؤديها فى غير وقتها فإنك لا تستشعر وقارها ولا سكينتها أبداً،ضاعت منك هذه المعانى؛ لأن الملائكة ارتفعت إلى ربها بصلاة من صلى فى أول وقتها، أما أنت ستُصلى مع من ؟ مع المُتخاذلين، مع المُتكاسلين، بدل أن تصلى فى وقت الرضوان، فى ساعة الرضوان، فى أول الصلاة تستشعر أن هناك قلوبًا حية حولك .

والآن يؤذن للظهر فى الساعة الواحدة إلا عشر دقائق بالتوقيت الصيفى أى الساعة الثانية عشرة ونصف يستعد صاحب القلب الحي للصلاة، عنده إحساس أن الجبار سينادى عليه، يبدأ يفرغ قلبه، ويفرغ حياته، قائلا: يا جماعة أنا أستعد للصلاة لا يشغلنى شىء، إنى الآن أستعد للصلاة وأُحضر قلبى، وأُحضر نفسى، دعونى حتى أستمتع بمناجاة ربى، بالخلوة إلى ربى، بالتقرب إلى ربى، بالصلاة؛ لأنها جميلة؛ لأنها قوية؛ لأنها مناجاة تحتاج إلى استعداد، تحتاج إلى استمداد، فمن استعد لها استمد بأنوارها، ومن استعد لها عاش بركتها، ومن استعد لها عاش خشوعها .

كما ذكرنا أن الناس هم الذين يقدمون من يرغبون للإمامة، والإنسان لا يفرح؛ لأنه يُصلى إمامًا، ولكن بعض الشباب من أبنائنا وأحبابنا أول ما يحفظ ما تيسر من القرآن الكريم يستشعر أنه لابد أن يذهب إلى مرتبة الإمام ولا ينبغى هذا؛ لأنها مسئولية كبيرة على هذا الإمام، فإنه يتحمل مسئولية مئات الآلاف من الناس الذين يُصلون خلفه، ومن هنا فإن كثيرًا من السلف والخلف كانوا يتهربون من الإمامة إلا أن يوضعوا فيها، يقال لك: فلان هو الذى يصلى (خطأ)؛ لأن الناس يستشعرون أن دعاءهم مستجاب أو أن صلاتهم مقبولة أو أن الله تعالى سيرحمهم ببركة هذا الرجل لأجل رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأمَّ به قومًا هم به راضون، وداع ما هو الداع؟ أى مؤذن يؤذن، أى: عندما يكون عندنا مائة ألف مئذنة يطلع منها مائة ألف شخص هم أطول الناس أعناقًا يوم القيامة .

عندما يكون الأذان للصلاة أذانًا واحدًا ، فيكون شخص واحد فقط هو الذى تطول عنقه يوم القيامة؛ لكن عندما تؤذن كل المآذن تطول أعناق كثيرين يوم القيامة كما أخبر المعصوم (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام).

أحيانًا أجد فى المسجد من يريد أن يؤذن ويستأذن فى ذلك؛ لأنه يتمنى أن يكون من أطول الناس أعناقًا يوم القيامة، لقد رأيت هؤلاء، وأعرف كثيرًا منهم لهم مراتب دنيوية رفيعة، ورغم هذا يدخل الجامع متواضعا حتى لا يعرف أحد مكانته فى الدنيا؛ لأن مكانته عند ربنا أهم، ويتخفى ويلبس ملابس عادية، ويدخل مُندسًا فى وسط الناس، وربما يكلمه أحدهم كلمة بذيئة، يقول له: اتفضل يا أستاذ وهو يسخر منه .

«وداعٍ (أى مؤذن) يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله»، فجميع من يسمعون صوته فى الكون يؤذنون معه، ويشهدون له يوم القيامة إذًا هذا هو النوع الثانى؛ والنوع الأول: «الذى قرأ القرآن وحفظ القرآن ابتغاء وجه الله وأمَّ به قومًا وهم به راضون » .

ولكن عندما تذهب لشخص تقول له: نرجو منك أن تصلى بالناس صلاة القيام، نعلم أنك رجل حافظ للقرآن يقول لك: كم سآخذ من المال؟ الجامع الآخر عرض على كذا ، وهو بذلك قد ضيع نفسه، وأحبط أجره حتى لو كان من أفضل الناس قرآناً .

والنوع الثانى: «وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه وفيما بينه و بين مواليه» .

أى شخص يعمل موظفاً فى الحكومة، (طبيباً، مهندساً) وكل إليه عمل وقيل له: عندك عيادة خارجية من الساعة كذا للساعة كذا، عندك "وردية" ليلاً من الساعة كذا إلى الساعة كذا، فلما ذهب أدى واجبات العمل، وأحسن إلى الناس الذين ينبغى أن يخدمهم أو أن يتابعهم أو أن يحسن إليهم، كل على حسب عمله، "عبد أحسن " وليس الإحسان أن يوقع حضورًا وانصرافًا ويقول: أنا ظهرت هل تريدون منى أى حاجة؟ أنا خارج، أنا عندى شغل .

ثم يذهب آخر الشهر ليأخذ مرتبه، ويقول لك: والله أنا أشتغل ثلاثين يومًا عند الحكومة وأتقاضى فى آخر الشهر (مائتين، أو ثلاثمائة، أو أربعمائة جنيه) والله ما يكفونى خبزًا، ونقول له: لماذا قبلت هذا العمل؟ غيرك يتمنى نصف هذه الوظيفة ونصف هذا المرتب، ولا يحصل عليه لكنك قبلت هذا العمل حتى لو بعشرة جنيهات فى الشهر ينبغى أن تحمد الله تعالى عليه، ولكن الإحسان كما قلت من كلام الحبيب (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام) «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأحدهم اتصل بنا يقول: الحمد لله ربنا أكرمنى عندى أولاد وامرأتى حامل فى الشهر الثالث لكنى أشعر وهى كذلك أنها لن تستطيع أن تقوم بواجبات هذا الجنين؛ ولذا نريد فتوى شرعية بإجهاضه، فقلنا له: لا يجوز حرام يا أخى لقد أعطاك الله تعالى أربعة أولاد إذا كانوا بناتًا أو ذكورًا، وتريد إنزال ما فى بطن زوجتك ألا تعرف، ألا تعلم أنه يوجد ملايين على وجه الأرض يتمنون إنجاب طفل، ويدفعون الآلاف لأجل طفل أنابيب مثلا ثم بعد عشرين سنة أو ثلاثين سنة يستجيب ربنا ﷻ لهم، وأنت عندك ابنك فى بطن أمه، فى بطن زوجتك، وتريد إنزاله، تريد قتله، تريد إجهاضه! هذا افتراء على الله ﷻ، والله افتراء؛ لأنه لو نظر إلى أحوال الناس لعلم أن الذى يرزق هو الله، وأن الذى رزقه هو، ورزق الطفل الأول والثانى والثالث والرابع سيرزق الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر، وأن الذى أرسل إليه الروح من السماء هو الله، وأن الملك الذى نفخ فيه الروح من الله، وأن هذه هبة الله، و هذه وديعة الله، وعندما تقتل هذه النعمة فإنك تقتل ما أعطاك الله، ما هذا؟ فاستشعر الرجل ساعتها أنه كأنه تجبر، أو تكبر، أو تغلظ أو تغطرس وقال: هل لى من توبة؟

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] هل جزاء مَن أحسن بعمله فى الدنيا إلا الإحسان إليه بالجنة فى الآخرة؟

الذى يحسن إلى أولاده وهم صغار، ويترأف بهم، ويُحسن إليهم سيحسنون إليه وهم كبار، الذى يحسن إلى أبيه وأمه وهم أحوج إليه فإنه عندما يكبر ويكون جَدًّا، ويكون أحوج إلى نفس هذه اللحظة التى عاشاها من قبل، قال له ربه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ أى: إذا أحسنت الآن إلى أبويك فإن أبناءك سيحسنون إليك. لقد تحدثت عن هذا الرجل الذى كان غليظًا مع أولاده، شديدًا، وكان يضربهم، وهو يتابعهم بدقة حتى إن ابنه قال: إن أبى مات من ثلاث سنوات، وأنا ما زلت مريضًا نفسيًا، وأكره أن أسمع اسمه، أو أن أرى صورته، أو أن أسير على الأرض التى كان يمشى عليها، لماذا يا ولدى ؟ فقال: لأنه أساء إلىَّ؛ لأنه لم يتق الله تعالى فى؛ لأنه لم يُحسن إلىَّ فهذا قولك يارب العالمين: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾ لمن؟ لغيركم؟ لمن؟ ﴿لِأَنفُسِكُمۡ﴾ سبحان الله .

كما فى قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] أى: أن الشخص عندما يُحسن إلى أولاده سيحسنون إليه عندما يحتاج إليهم.

وعندما يكون هناك موظف كبير، أو رئيس فى العمل، ويترأف بالناس، ويراعى ظروفهم ويلتمس الأعذار لهم، فإنه عندما يخرج على المعاش سوف يدعو الناس له: ربنا يبارك فيه، ربنا يحسن خواتيمه، ربنا يبارك له فى عافيته، ربنا يطيل عمره فى طاعته، وإذا كان غليظًا معهم وشرسًا ومتجبرًا ومتغطرسًا، ماذا سيقولون عنه ؟

يا من له العزة والجبروت، يا ذا الملك والملكوت، يا من هو حىٌّ لا يموت، سبحانك ربنا ما أعظم شأنك ورفع مكانك أنت ربنا، يا متقدساً فى جبروته، إليك نرغب وإياك نرهب، يا عظيم، يا كبير، يا جبار، يا قادر، يا قوى تباركت يا عظيم، تعاليت يا عليم، سبحانك

يا عظيم، سبحانك يا جليل، نسألك باسمك العظيم التام الكبير أن لا تسلط علينا جباراً عنيدًا، ولا شيطاناً مريداً، ولا إنساناً حسوداً، ولا ضعيفاً من خلقك، ونسألك اللهم أن تمحو من قلوبنا كل شيء نكرهه، وأن تملأ قلوبنا من خشيتك ومعرفتك ورهبتك، والرغبة فيما عندك، والأمن والعافية، واعطف علينا بالرحمة والبركة منك، وألهمنا الصواب والحكمة، ونسألك اللهم علم الخائفين، وإنابة المخبتين وإخلاص الموقنين، وشكر الصابرين، وتوبة الصديقين.

اللهم يا ذا المن الذى لا يكافئ امتنانه، والطول الذى لا يجازى إنعامه وإحسانه، نسألك بك ولا نسألك بأحد غيرك أن تطلق ألسنتنا عند السؤال، وأن توفقنا لصالح الأعمال، وأن تجعلنا من الآمنين يوم الرجفة والزلازل، يا ذا العز والجلال، نسألك يا نور النور، قبل الأزمنة والدهور، أنت الباقى بلا زوال، الغنى بلا مثال .